الفصل التاسع

صنع الله إبراهيم

في روايـة «شرف»، التـي صـدرت طبعتها الأولى في مـارس 1997، وتدور أحداثهـا في عـام 1995، يقـدم صنـع الله إبراهيـم رؤية عميقـة متعددة الأبعاد، عبر تجربة الشـاب أشرف عبدالعزيز سليمان، الشهير بـ"شرف»، عن طبيعة الحياة داخل السجون المصرية، حيث الصورة المصغرة المكثفة للواقع الأكثر اتساعًا خارجها. في السجن، يُعاد إنتاج العناصر الشائعة المستقرة جميعًا، سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا ونفسيًّا وجنسيًّا، و ينشغل السجناء بما يهيمن على من يعيشون خارج السجن من اهتمامات.

في إحدى الزنازين، تتعلق عينا شرف «بصور يسرا وليلى علوي وفيفي عبده ورضا عبدالعال الملصقة على الجدران».

الممثـلات والراقصات ولاعبو كـرة القدم، نجـوم المجتمع ممن تُعلّق صورهـم في البيوت والدكاكـين والقهـاوي خارج السـجن، وتظهر الصورة نفسـها عـلى جـدران الزنازين. رضا عبدالعـال، المولـود في عام 1965، من أشـهر نجوم الكـرة المصرية خلال المرحلـة التاريخية، منتصف التسـعينيات، وتزداد أهميته النسـبية بالنظر إلى الضجة الهائلـة التي تصاحب انتقاله مـن الزمالـك إلى الأهلي، مقابل مبلـغ باهظ وفق معايـير النصف الأول من تسـعينيات القرن العشرين.

الأهلي والزمالك هما قطبا الكرة المصرية، والأكثر استحواذًا على البطولات. تنقسم جماهير الكـرة بينهما، وتوصف المباريات التي تجمعهـما بلقاءات القمة، حيث الإقبال الجماهيري غير

المسبوق على المشاهدة من ناحية، والاهتمام الإعلامي الطاغي من ناحية أخرى، فهل يمكن أن يختلف الأمر داخل السجن؟!.

ينتبه شرف إلى ضجة غير تقليدية في الطرقة: «خرجت من الزنزانة أستطلع الأمر فوجدت توكل محاطًا بعدد من النزلاء وقد بدا الانفعال على وجوه الجميع. وعرفت أن وفدًا من الطابق العلوي قد قابل سيادة الضابط ادكو وطلب منه تشغيل التليفزيون ليتمكن النزلاء من مشاهدة مباراة الدوري بين الأهلي والزمالك. ووافق ادكو على وضع التليفزيون في الطرقة وتأخير التمام ساعتين لهذا الغرض».

مشاهدة مباراة القمة مطلب مُلحٌّ من السجناء مختلفي المشارب والتوجهات، وتمثل موافقة الإدارة إنجازًا يستدعي الانفعال من فرط الفرح والشعور بالتحقق. تأخير «التمام» ساعتين كاملتين ليس بالتنازل اليسير من الضابط مفرط القسوة، الذي يستقبل وفد السجناء ويحقق رجاءه، مدركًا شعبية الكرة وأهمية الاستجابة التي تسهم في زيادة شعبيته وتعينه في أداء عمله.

لا يتوانى شرف عن نقل الخبر المثير الذي ينتشر سريعًا، وتتجلى آثاره في السلوك العملي الإيجابي التعاوني الذي يبرهن على طغيان شعبية كرة القدم وما تحظى به من اهتمام: «بحثت عن شحاتة وزغلول وأبلغتهما النبأ الذي انتشر بسرعة البرق. وخرج نزلاء الزنازين المجاورة إلى الطرقة وعلى وجوههم مظاهر الانفعال والبهجة وفوجئت بجارنا الطبيب يحزم وسطه بشال أحمر اللون ويرقص معلنًا تأييده للأهلي فصفقت له مشجعًا. ورقص زغلول أيضًا رغم أنه لا ينتمي لأي ناد».

شرف من مشجعي الأهلي المتعصبين، مثل الطبيب الذي يرقص فرحًا معبرًا عن السعادة التي يستشعرها لمشاهدة المباراة، وتنتقل العدوى إلى من لا يهتمون بالكرة ولا ينتمون إلى أي من الناديين الأكثر جماهيرية، ذلك أن البطولة هنا للأجواء الاحتفالية الصاخبة المصاحبة لتغيير الإيقاع اليومي المألوف الراكد، وهو الأمر نفسه خارج السجن، حيث تمثل الرياضة الشعبية متنفسًا بالغ الأهمية للشعور بالجدوى ولذة الانتصار والتحقق، وأداة للبحث عن انتماء يتجاوز الهموم الفردية التقليدية.

تكشف ردود الفعل عن الأغلبية الساحقة التي تشجع كرة القدم وتنشغل بها، وتنتمي إلى الناديين العريقين الشهيرين ذائعي الصيت، مع تفوق ملحوظ لافت للنادي الأهلي، لكن المتطرفين الدينيين من أعضاء الجماعات الإسلامية المتشددة يخالفون الإجماع، فهم يرون في الرياضة الشعبية لهوًا محرمًا يستدعي المقاومة والرفض، فضلًا عن موقفهم المعادي للتليفزيون الذي ينقل المباريات، فهو محرّم عندهم أيضًا!.

يلتف السجناء حول السجين اللبناني يسألونه عن الأخبار، ويستغرق شرف في متابعة المشهد: «سمعته يقول إنه شهد ثلاثة من أمراء السنية يدخلون للمأمور، وفهم أنهم طلبوا مقابلته بخصوص موضوع التليفزيون.

استولى الوجوم على الجميع. وتطلعت إلى الطابق الثاني بحثًا عن الشيخ عصام لكني لم أر له أثرًا. وبعد قليل عرفنا من الدهشوري أن السنية احتجوا على تشغيل التليفزيون وطالبوا المأمور بإلغاء قرار ادكو، لكنه رفض».

الموقف العدائي المتطرف للجماعات الإسلامية تجاه مشاهدة التليفزيون وكرة القدم معًا، لا يعبر عن القاعدة العريضة من المصريين المولعين بالكرة، وثمة قطاع عريض من المثقفين الجادين يشاركون المتطرفين في التحفظ، لأسباب غير دينية بطبيعة الحال، ومن هؤلاء الدكتور الصيدلاني رمزي بطرس نصيف: «ظهر عدد إضافي من الحراس عند باب العنبر. وتجمع أغلب النزلاء في الطرقة فوق بطاطينهم. لم يكن الدكتور رمزي بينهم، فقد فضل البقاء في الزنزانة والقراءة مما أكد لي أنه شخص غريب. لم يظهر الدكتور ثابت أيضًا فلديه تليفزيون خاص به في زنزانته. ولزم السنية زنازينهم وارتفعت منها أصوات قراءة القرآن».

أقلية لا يُعتد بها تنصرف عن مشاهدة مباراة القمة وتتخذ موقفًا عدائيًّا، لأسباب دينية وثقافية، وأقلية أخرى تتعالى على فكرة الاندماج مع القطيع لدوافع طبقية متعجرفة، وتبقى الأغلبية في الخندق الآخر المضاد، وهم من يستقبلون جهاز التليفزيون بالتهليل والتصفيق، ويتهيأون للمشاهدة والاندماج كما هو الحال بالنسبة لشرف: «نسيت كل شيء عندما بدأت المباراة التي سارت في البداية ببطء وملل إلى أن بدأ فريق الأهلي يسجل انتصاراته التي تُوجت بفوزه».

انتصـار الأهلي لا يمكن أن يكون صحيحًـا، ففي عام 1995 حيث تدور أحداث الرواية، يلتقي الفريقان مرتين، وينتهي اللقاءان بالتعادل. من ناحية أخرى، تكشف صياغة صنع الله عن درايته المحدودة باللعبة ومصطلحاتها الشـائعة، فلا معنى للعبارة المنسـوبة إلى شرف: «بدأ فريق الأهلي يسجل انتصاراته»!.

بعيدًا عن مثل هذا الخلل، يقدم الروائي رصدًا مهمًّا لانفعالات ومشـاعر مشـجعي الكرة، وهـو ما يتجلى بوضوح بعد نهاية المبـاراة: «جمعنا بطاطيننا في غاغة هائلة وكوّن نزلاء الطابق العلوي مظاهرة صعدت السلم تلوّح بعلم أحمر وهم يهتفون للأهلي. والتف مؤيدوه وأنا منهم حول الطبيب الذي استأنف الرقص وهو يسخر من أنصار الزمالك».

لا فارق في التداعيات وردود الفعل بين السجن والشارع، الذي يخلو من الأسوار والحراس والأبـواب المغلقـة: تظاهر صاخـب، أعلام ترتفع، رقـص وهتاف ومعايرة وسـخرية لاذعة. أنصار الفريق الفائز يشـعرون باللذة والنشوة، والفرحة الهسـتيرية مبررة في ظل واقع قوامه التعاسـة وغيـاب التحقق. يتوقف شرف أمـام تداعيات ما بعد المباراة ويقـدم لوحة متكاملة بالغة الأهمية، تكشـف عن طبيعة جمهور الكرة وسماته النفسية من ناحية والدور الذي تلعبه الرياضة الشـعبية واسـعة الانتشـار كأداة للتنفيس مـن ناحية أخرى: «بـدأ التمام وانصرف الجميـع إلى زنازينهـم. كنا في حالة غير طبيعية نضحك لأي سـبب رغم الجو الخانق. اسـتعدنا وقائع المباراة عدة مرات وامتد بيننا الحديث لسـاعة متأخرة وتطور إلى شجار بين عزت بدوي وأبو السـباع الذي كشـف عن تأييده للزمالك. وعجبت كيف أن رجلاً في سنه وخبرته بالحياة يعجز عن اختيار الفريق الأفضل. وانقسمت الزنزانة إلى فريقين أيضًا عدا مهندس الألومنيوم والدكتـور رمزي. وتوتر الجو عندما هاجم أبو السـباع حكم المباراة الأجنبي واتهمه بالتحيز للأهـلي. وقـال إن الزمالك يلعـب جيدًا لكن كان هنـاك اتفاق سري على أن يخـرج الفريقان متعادلـين دون نقاط اسـتعدادًا لمبـاراة الكأس وأن الأهلي خـرق الاتفاق. أثارنـا هذا الاتهام وأوشك عزت بيه أن يمسك بخناق أبو السباع لولا تدخل توكل».

أحاديث مطولة عن المباراة بعد نهايتها، ومشـاجرات أنصار الفريقين تنم عن المدى الذي يصل إليه التعصب وضيق الأفق. يكشف تفكير شرف نفسه، وهو الأقل تعصبًا، عن التطرف

الذي يخاصم العقل والمنطق، فهو لا يستوعب وجود «الآخر» الزملكاوي، ويرى في الانتماء إلى الفريق المنافس خللاً فادحًا في التفكير، لا يليق بالأسوياء العقلاء من البشر!.

التحامل على الحكام واتهامهم بالظلم والانحياز إلى الفريق الفائز، سمة راسخة أيضًا عند المشجعين الذين لا يقرون بمشروعية الهزيمة في إطار التنافس العادل، ولا يرون لها تفسيرًا إلا على ضوء التآمر والغدر، كأنهم يتحدثون عن الحياة الواقعية الحافلة بالانكسارات والهزائم، خارج ملعب الكرة، التي لا يحكمها منطق إلا مظالم الحكام!.

مرة أخرى يكشف صنع الله عن محدودية وعيه بمصطلحات عالم كرة القدم، وهو ما ينعكس سلبًا على مقولات شخصياته، فالمنسوب إلى «أبو السباع» لا يمكن صدوره عن مشجع ذي خبرة. لا وجود في اللعبة لتعادل «بدون نقاط»!، ولا معنى على الإطلاق لعبارة مثل قوله: «استعدادًا لمباراة الكأس»!.

يمتد الاهتمام بمباراة القمة إلى صباح اليوم التالي، فثمة انتظار لمتابعة تعليقات الصحف وما يكتبه النقاد الرياضيون، وهو ما يفعله شرف باهتمام وتركيز: «قرأت التعليقات الرياضية ولم أجد بها إشارة إلى اتفاق ما بين الناديين وإن كان أحد المعلقين عدّد بعض الفرص التي أضاعها لاعبو الزمالك دون مبرر».

الاتفاق بين الناديين على التعادل من ادعاءات «أبو السباع» لتبرير هزيمة الزمالك، فكيف يصدقها شرف ويتوقع أن تكون موضعًا للتعليق الصحفي؟، أما الفرص الضائعة فهي جزء مألوف معتاد من وقائع مباريات كرة القدم، ولا ينبغي لحقيقة كهذه أن تغيب عن كروي عتيد مثله!.

❐❐❐

obeikandi.com